

الفصل الرابع

بيئة القديس بولس

(أ) طرسوس : مدارسها ومدى إشعاعها - التربية الفكرية للقديس بولس - كيف أصبح حوارياً لعيسى - خلقه - مدى أصالته - عناصر عقيدته وأهمية البحث فيها .

(ب) الآلهة المتقنون في الشرق اليوناني : مدى التشابه والامتزاج بينهم - أسطورة موتهم ثم بعثهم في مواسم سنوية معينة - أصل هذه الأسطورة ومعناها الأول - أمثلة تطبيقية من العقائد الخاصة بميثرا وأوزيريس وأدونيس وتموز - مأساة حياة وموت الآلهة .

(جـ) التفسير الميتافيزيقي لهذه القصص الإيفية - كيف ترمز إلى أسرار المصير الإنساني - حتمية مشاركة الإنسان في مصير الإله المنقذ من أجل أن يصل إلى عالم الخلود - كيف كانت تتم هذه المشاركة - التعميد بالدم ومأدبة القربان (مراسم التضحية بالثور عند المشركين والمأدبة الإيفية) - تشرب الإله - تشابه هذه الطقوس مع طقوس التعميد والقربان في المسيحية - نظرية « المنقذ » في الأسرار وفي تفكير القديس بولس .

(د) هل كان القديس بولس على معرفة بـ « الأسرار » ؟ - عقيدة طرسوس (بعل طرز وسندان) - « أسرار » أخرى - نظريات واحتمالات - أثر طرسوس الديني على بولس - أثرها الفلسفي - خصائص العقيدة اليهودية في طرسوس - بولس كان خليقاً بدوره كداعية للمسيحية بين الكفار بفضل الصفات الثلاث التي امتاز بها : الروح اليونانية ، الديانة اليهودية ، الجنسية الرومانية .

(١)

ذكرنا اسم القديس بولس في سياق فصولنا السابقة . وعلينا هنا أن ندرس في عناية البيئة التي نشأ فيها وآثارها عليه .

لقد ولد من عائلة يهودية أقامت بمدينة طرسوس في سيليقيـا ووجدت لها بها رزقاً . وكانت طرسوس مدينة نشيطة غاية في النشاط ، تقع على نهاية حدود إقليم سيليقيـا ، وتعد مفتتح سبل النفوذ إليه ، كانت حلقة الاتصال بين هضبة آسيا الصغرى والشام ، ومفرق الطرق التجارية الهامة التي تجلب إليها في آن واحد ، من اليونان وإيطاليا وفريجيـا وكابا دوسيا والشام وقبرص وفينيقيـا ومصر . سيلالا ينقطع من الأفكار والعقائد والتأثيرات المختلفة . وحاول ملوك الشام - ونخص بالذكر منهم أنطاكيوس إبيفان (عام ١٧١ قبل الميلاد) - أن يصبغوها بالصبغة الإغريقية . غير أنها بقيت أساساً مدينة شرقية ، وذلك على الأقل في مجال المعتقدات السائدة . وإن انتشرت فيها وازدهرت المدارس اليونانية ، وقام بين رحابها ما يمكن أن نسميه اليوم بـ « الجامعة » . ويقول المؤرخ الجغرافي سترابون عن تلك الجامعة : إنها كانت سبباً لشهرة المدينة في العالم اليوناني الروماني ، وعلى الأخص فيما يتعلق بالدراسات الفلسفية .

وكان أساتذة هذه الدراسات يتمون إلى المذهب الرواقى . ويبدو أنهم لم يكفوا بغرس تعاليم هذا المذهب في أذهان الطلبة الذين يتابعون حلقاتهم ، بل راحوا ينشرون مبادئه الأساسية وقضاياها الأولى وشعاراته المثيرة وروحه ، على نطاق أوسع ، في شبه « حملة تبشيرية » ذات طابع شعبي يتفق مع طرق تفكير

الجاهير . وهكذا نستطيع أن نجد تفسيراً للأمر الذى يهتما بالدرجة الأولى ، وهو معرفة بولس للمبادئ الأولى فى الفلسفة الرواقية ، وللوسائل الشائعة فى الأساليب الخطابية لدى المفكرين اليونانيين ، وذلك مع ترجيحنا أنه لم يكن من رواد جامعة طرسوس ولا من دارسى الفلسفة الرواقية ، فقد كفاه أنه عاش سنى شبابه فى هذا الوسط الذى تشبع بالتراث اليونانى على أيدي أساتذة الفلسفة هؤلاء ، الذين جمعوا بين التفكير الفلسفى والأسلوب الخطابى .

وترغم لنا مجموعة « أعمال الرسل » أن بولس نشأ بالقدس « بجوار جباليل » ، أى بمدرسة من ألمع المدارس اليهودية فى ذاك العصر . وليس فى وسعنا بطبيعة الحال نقي هذا الخبر بصورة قاطعة ، ولكننا نستطيع القول بأنه على أى حال لا يتفق كثيراً مع الصورة العامة التى تكونت لدينا من دلائل مختلفة : فلا نفهم مثلاً أن تلميذاً من تلاميذ كهنة فلسطين تصل به الحال إلى تجاهل وإنكار أساتذته كما فعل بولس فى طور من أطوار حياته ، ونراه أحسن التعبير عن الروح اليهودية التى كانت تسود - على ما يبدو - فى معابد المهجر المتأثرة بالفكر اليونانى^(١) . أغلب الظن فى رأينا أنه تلقى فعلاً العلوم الخاصة بأصول اليهودية واستوفها ، وتدرج فى الدراسات الدينية إلى أبعد حدودها ، ولكن فى غير القدس من المدن ، فلم تكن فلسطين هى الموطن الوحيد للعلماء اليهود . ونحن نعلم علم اليقين أن منهم من كان يقيم أيضاً بالإسكندرية وبأنطاكية ، والدلائل تشير إلى أن بولس قد أكمل دراساته بهذه المدينة الأخيرة .

وخلاصة القول أن صاحبنا ولد بأرض يونانية ، يتحدث بلغة اليونان

(١) انظر ، فيما يتعلق بهذه المسألة الهامة كتاب ك . ج . موتيفورى : « اليهودية والقدس

بولس » ، لندن ، سنة ١٩١٤ .

ويكفيها منذ نشأته الأولى . وكان يتمي إلى عائلة ذات شأن ، ويحمل لقب « مواطن روماني » وراثته عن أبيه ؛ فكان بكل ذلك معداً إعداداً تاماً لإدراك وتفهم التطلعات الدينية لدى يهود المهجر الذين يؤمنون ببعسى كما آمن به هو ، ولدى المتعلمين عليهم من الطوائف الدينية المختلفة . وكان في البدء على عداء عنيف للمسيحيين ، ثم تحول إلى صفهم على أثر أزمة نفسية لن نتعرض لها الآن بالتحليل التفصيلي ، بل نكتفي بالقول بأنها كانت نتيجة لصراع داخلي مبهم طويل . ولقد انتهت هذه الأزمة إلى رؤيا حاسمة ، حيث أيقن بولس أنه أبصر السيد المسيح أو تلقى منه كلمات واختص منه بالتشريف الأعظم : أن يكون من الحواريين ؛ وذلك خلال رحلة له قاصداً دمشق . ويجب أن نشير هنا إلى أن بولس لم يلتق ببعسى مدة حياته ؛ لذلك لم تكن تأملاته عن شخص الأستاذ وتعاليمه لتحدها آفاق الذكريات والواقع كما كان الحال بالنسبة إلى الاثنى عشر من الحواريين الذين بدعوا بالدعوة . ويجب أن نشير أيضاً إلى الصفات التي تميز بها بولس والتي كانت من أسباب نجاحه : الروح الحماسية الوثابة ، والمنطق البين المدرب على المناقشة ، ثم التفكير العلمي الحلي والعزيمة التي لا تقهر والتي تفرض فرضاً رسالة صاحبها وآراءه .

وإن هذه الآراء لتبدو لنا عميقة الأصالة ، إذا ما قورنت بتلك التي اكتفى بها إيمان الاثنى عشر - حتى بعد تطوراته الأولى . ولا أدل على ذلك من قراءة الفصول الأولى من « أعمال الرسل » بحذافيرها ، ثم قراءة « الرسالة إلى أهل روما » التي كتبها بولس . ويجب ألا تغرنا الظواهر ، فعبقرية بولس في التفكير الديني لا جدال فيها ، غير أننا إذا بحثنا هذا التفكير لديه ، وجدنا أنه ينطوي على آراء ومدرجات ليست كلها من وحي عبقريته الخاصة ، بل تجمعت لديه

من مصادر مختلفة ، وإن كان له هو الفضل في التعبير عنها ونقلها إلينا ، على غرار ما فعله فيلون الإسكندري في مؤلفاته التي انتظمت بين دفتيها جهود كثيرة لسابقه من مفكرى اليهود .

والدراسة المفصلة لرسائل بولس الكبرى ^(١) تكشف لنا النقاب عن مزيج من الأفكار يبدو ، لأول وهلة ، غريباً حقاً : مزيج من دعوى الاثنى عشر الأماسية ، ومن الأفكار اليهودية - التي يرجع بعضها مباشرة إلى النصوص المقدسة القديمة ، ويرجع بعضها الآخر إلى اعتبارات دينية حديثة نسبياً - ثم من المفاهيم المنتشرة في الأوساط الوثنية اليونانية ومن الذكريات الإنجيلية والأساطير الدينية الشرقية .

وعلينا أن ندرس هذه المسألة في شيء من التفصيل : فهي تتعلق بالأسس الأولى لأخطر جدال يثيره تاريخ العقائد المسيحية : الجدل حول تطور هذه العقائد ، من دعوة عيسى كما حددناها في الفصول السابقة ، إلى دين يستهدف خلاص البشر أجمع .

والنظرة الأولى إلى الحياة في الشرق الآسيوى - من بحر إيجه إلى ما بين النهرين - تبين أن عدداً معيناً من الآلهة كان يحتل مكان الصدارة فيها خلال العهد الأول لقيام المسيحية . وكانت بين هذه الآلهة أوجه شبه لا تحصى ، إلى درجة أنها امتزجت وتوحدت في بعض الأحيان . وكان أهمها : أثيس في بلاد الفريجيين ، وأدونيس في الشام ، وميلكارث في فينيقيا ، ثم تموز ومردوك في ربوع ما بين النهرين ، وأوزيريس بمصر . وعلينا أيضاً إذا أردنا الانصاف أن نذكر الإله الفارسي ميثرا ، الذى بدأت شهرته في تلك العصور بين رحاب

(١) وأقصد بها الرسائل المعروفة التي يجمع أكثر النقاد اليوم على صحة نسبتها إليه .

الإمبراطورية الرومانية . وكان القوم الذين يرتحلون من إقليم إلى آخر ينقلون معهم عباداتهم وعقائدهم الدينية ، بل ينشرونها في كثير من الأحيان خارج موطنهم ؛ ذلك أنهم كانوا يلقون ، أينما حلوا في هذا العالم الآسيوي المتقارب ، مظاهر ومشاكل دينية شبيهة بتلك التي نشئوا عليها ، والتي عبروا عنها في صور أسطورية واحدة ، وأرادوا تمجيدها بطقوس متقاربة كل التقارب في غالب الأمر . وإننا لا نرجح نظرية نشوء هذه الأساطير وتلك الطقوس بعضها من بعض : إنها تشابهت لفيضها من نبع فكري وروحي متشابه . وكانت هذه القرابة سبباً في تسهيل المبادلات الكثيرة بين أصولها ، وفي الإسراع بالتداخل والتفاعل النشط بين عناصرها ، فأصبحت تتسم بطابع « عائلي » قوى ، وإن ظلت هناك اختلافات بائنة بين القصص الإلهية التي تعتمد عليها جميعها . وقد نزع تيار الامتزاج هذا بين الأديان - الذي يعرف بـ « التأليف » الديني الشرقي - إلى استخلاص بعض التصورات الهامة والشعائر الأساسية من ثنايا السيل الدافق لتفاصيل العقائد والطقوس التي تلاقت فيه وتفاعلت ، وتلك التصورات والشعائر هي التي نلمحها قبل كل شيء عند دراسة أى من العبادات التي ذكرناها آنفاً ، وهي تعتبر في الواقع العلة الأولى الواضحة لوجود كل هذه العبادات بما تهدف إليه من هدى بنى البشر للإيمان وللسبيل الكفيل بتحقيق خلوده في ديار السعادة .

وإن الخاصة التي تثير الانتباه أكبر من كل الخصائص الأخرى لآلهة المنطقة ، عند دراسة تاريخهم الأسطوري ، لم تكن تلك التي بمقتضاها يموتون في موسم معين من السنة ، ثم يبعثون بعد ذلك في موسم آخر ، فيشعلون في نفوس المؤمنين بهم مشاعر الأسى العميق ، ثم يستثيرون لديهم مظاهر الفرح التي تكاد

تصل إلى حد الجنون . ونلاحظ ، إلى جانب هذا ، أن هؤلاء الآلهة ليسوا في حد ذاتهم بالآلهة العظماء البالغين في العظمة ، بل إنهم يشبهون البشر من قريب في الكثير من أحوالهم - وذلك ، على الأقل ، إن نظرنا إلى تاريخهم الأول : فهم عرضة للفناء ، وبعضهم - أمثال أتيس الراعى ، أو أدونيس الذى يروى أنه ثمره علاقات غير مشروعة بين أخ وأخت - لم يكونوا سوى رجالٍ ألهمهم إرادة الآلهة الآخرين ؛ ولم يرتفعوا شيئاً فشيئاً إلى مرتبة أعلى من مرتبتهم البشرية الأولى ، ولم يصلوا إلى مصاف الآلهة المهيمنة على الأرض ، إلا بفضل الأهمية الكبيرة التى أعطيت بالتدريج لوظائفهم بالنسبة إلى الإنس . وسوف نفصل فيما يلى السبل التى انتهت بهم إلى ذلك .

لقد ثارت مناقشات كثيرة مطوّلة حول أصل هذه الآلهة المختلفة ، وحول مبدأ ورموز الأساطير التى يمثلونها . والجدل ينحصر اليوم بين نظريتين فحسب ، وإن كانت الواحدة منهما لاتلغى الأخرى : فإما القول بالآلهة « الشمسية » ، وإما التفسير بـ « المواسم الزراعية » . ولكن العلة الأولى في كلتا الحالتين لا يمكن أن تكون إلا تتابع الفصول المنتظم على مدار الزمن ، سواء نظرنا إليه من زاوية المدار الظاهرى للشمس أو من ناحية ظواهر نمو النباتات . وقد نبعت من انتظام الفصول تلك الأسطورة التى تزعم أن الإله يموت في بدء الشتاء ، ثم يبعث على أبواب الربيع . وعلى هذا النهج يمكن القول بأن بعض الآلهة التى ذكرناها كانت ، فى الأصل ، آلهة « كوكبية » ، وكان بعضها الآخر يسمى إلى فصيلة « آلهة الزراعة » . ولكن بمرور الزمن ، حدثت بين هذه الصور الأولى أنواع من التداخل الطبيعى ، فأصبحنا لانستطيع الوصول إلى اليقين دائماً فى الأصل الأصيل أو الخصائص الأساسية للكثير منها .

والظاهر أن ميثرا كان إلهاً شمسياً ، لذلك احتفل بمولده في الخامس والعشرين من شهر ديسمبر ، أى في موعد الانقلاب الشتوى . ويبدو أن أوزيريس كان إلهاً قريئاً ؛ ولعله لم يكن كذلك في البدء . أما تموز ، فهو من آلهة الزراعة ، يقضى عليه قيظ الصيف وتحية أول نسمات الربيع . وهكذا الحال بالنسبة إلى أدونيس ، وبالنسبة أيضاً - على ما نظن - إلى أغلب هؤلاء الآلهة الذين يموتون ثم يبعثون : فالعلاقة الواضحة بين حياة الشمس وحياة الأرض تفسر لنا في يسر كيف تحول أرباب الزراعة إلى أرباب للكواكب . وعلى أى حال فإننا نلاحظ أيضاً أن أغلبهم على رابطة وثيقة بإلهة أم ، تتمثل فيها الأرض أو الطبيعة الخصبة ، وهى التى فى حجرها تربو أو التى منحتهم عطفها ورعايتها أو أحببتهم حب المرأة للرجل . . هكذا نجد « الأم الكبرى سيبيل » فى أسطورة أتيس ، وأفروديت بالنسبة إلى أدونيس ، وأشتار مع تموز ، وإيزيس إذا نظرنا إلى قصة أوزيريس . لذلك جمع الناس فى العبادة بين هؤلاء الأرباب وبين هاتيك الشخصيات الإلهية النسائية ، بل أقاموا لهم الشعائر فى معابدهن وكأنهم ضيوف لديهن .

ويهتم الدارمون إلى يومنا هذا بالطبيعة الأولى لبعض الآلهة ، وما زالت لهذه المسألة أهمية كبرى فى تاريخ الأديان . بيد أن الأمر الذى يهمنى فى المقام الأول هو الصورة التى رسمت والتفسير الذى أعطى للأساطير الخاصة بموت وبعث هؤلاء الآلهة . ونحن فى غالب الأمر نجد المعلومات التى نعتمد عليها متوافرة فى وصف الاحتفالات التى كانت تقام تكريماً لهم . وكل حفل منها يمكن أن يعتبر « مأساة » مسرحية فى موت الإله ثم بعثه . وقد تكون الطقوس مزدوجة ؛ وأقصد بذلك أنه كانت تقام احتفالات فى موسمين معينين من كل سنة . وفى

هذه الحالة يرتفع أحد الاحتفالين إلى مرتبة من الأهمية أعلى ، في أعين الناس ، على حساب الثاني . هكذا كان الأمر مثلاً بالنسبة إلى الاحتفال الخاص بموت تموز في تمام موعد الانقلاب الصيفي ، وكذلك الاحتفال بموت أدونيس ؛ وبين الإلهين المذكورين صفات مشتركة كثيرة تؤدي أحياناً إلى الخلط والاشتباه . أما بالنسبة إلى مردوك ، وإلى الآلهة الشمسية عامة ، فإن أهم الاحتفالين هو ذلك الخاص بانتصارهم أو بعثهم بعثاً جديداً . وعلى النقيض من ذلك قد نجد في بعض الأحيان تجميعاً لعيدى الإله في حفل واحد ، يقام في الربيع أو في الخريف ، ويتبدى بنعى الإله الميت ، ثم لا يلبث الناس أن يمجّدوا بعثه من جديد . ومثل ذلك الطقوس التي كانت تقام لموت وبعث أتيس في النصف الثاني من شهر مارس مع حلول الاعتدال الربيعي .

(ح)

تطورت أسطورة موت وبعث الإله هذه بتطور الشعور الديني وإننا لانريد أن ندخل في تفاصيل هذا التطور ، فمن شأنها - وإن حاولنا الاختصار قدر الإمكان - أن تخرجنا عن حدود الموضوع الذي يهمننا ، لذلك نكتفي بإثبات الصورة النهائية التي وصلت إليها .

وفيما يلي الخطوات المختلفة التي يسيرها الإله - في مخيلة الناس إذ ذاك - للقيام بهذا الدور .

يتعذب الإله تماماً كما يتعذب الإنسان ؛ ثم يموت كما يموت الإنسان ؛ ولكنه يتغلب على العذاب وعلى الموت ، إذ يبعث من جديد ، وأتباعه يمثلون

رمزاً ويجددون كل عام ، بشكل ما ، مأساة حياته على هذه الأرض ، وهم مع هذا يؤمنون بأنه يتمتع بحياة السعادة في ديار الخلد الإلهية منذ ذلك اليوم الذى بعث فيه حقيقة فى الماضى السحيق . فشكلة « النجاة » إذن بالنسبة إلى بنى البشر ، بعد أن شاركهم الإله فى ظروفهم الإنسانية بعذابه ثم بموته ، تلخص فى الوصول إلى أعمق أعماق المشاركة المصيرية حتى تنتهى بهم أيضاً إلى البعث والحياة الأخرى فى ديار السعادة اللانهائية . والسييل إلى ذلك وجدوه فى نوع من الطقوس المسرحية التى تنحون نحواً باطنياً ، يفترض فى المؤمن أنه يشارك فى الذات الإلهية بواسطة سلسلة من المراسم الدينية توصف بالفعالية . إنه يمر رمزياً بمختلف مراحل التجارب التى مرّ بها الإله . وبهذه الوحدة مع الإله ، التى تغير كيانه الخاص ، يضمن الإنسان أن يصير إلى مصير الإله نفسه ، أى أن الخلود ينتظره بعد محن الحياة الدنيا وبعد الموت . وكان مصير « المنقذ الإلهى » - وتلك هى الصنعة التى يتخذها حينئذ آلهة الموت والبعث - كان مصيره فى آن واحد مثالا وضماناً لحياة المؤمن ، وقد وصف لنا « فرميكوس ماترنوس » - وهو أحد الكتاب المسيحيين من القرن الرابع - احتفالاً ليلياً من الاحتفالات التى كانت تقام لمثل هؤلاء الآلهة ، « الآلهة المنقذين » ، قال : « يبكى الناس ، ويستسلمون للرعب من المصير المجهول الذى ينتظرهم فى المستقبل اللانهائى ويدخل الرجل الساحة ثم يمر بكل كاهن ، ليلمس صدره حسب شعائر معينة ، وهو يهمس إليه فى بضع بالكلمات القدسية التالية : « لتعد الثقة إلى نفسك ، فقد نجا الإله . وسوف تصل أنت أيضاً إلى النجاة فى نهاية طريق الآلام » . ونحن لنعلم على وجه التحديد كيف كانت الوحدة تتم بين المؤمن و « المنقذ » فى عبادات مختلف الآلهة المنقذين . ولكننا على يقين من أن هذه

الوحدة كانت هي الهدف في سائر تلك العبادات ، من وراء بعض الطقوس التي نخص منها بالذكر طقسين يثيران الانتباه عند أول وهلة ، وهما : التعنيد بالدم ومأدبة القربان .

وإننا لنجد في عبادة الفريجين للإلهة سيبيل وللإلهة أتيس ، كما نجد في بعض الديانات الآسيوية الأخرى المختلفة ، وفي تلك التي تؤمن بالإله ميثرا ، نوعاً غريباً من الطقوس ، يدخل ضمن مدارج المعرفة الباطنية التي يختص بها الأتباع المخلصون ، ويدعى بـ «التوروبول» ، أي : التضحية بالثور^(١) . ويحضر من أجله خندق داخل أسوار المعبد ، فيترل فيه المريد ، ثم تسدل عليه شبكة يذبح عليها ثور - حسب شعائر معلومة - وينهمر الدم في الحفرة ، فيتلقاه الذي بها ويحاول أن يغمس فيه سائر أعضاء جسده . وبعد إتمام هذا النوع من التعنيد ، تتزع أعضاء الذكر من الأضحية ، وتوضع في إناء مقدس ، ويتقدم بها السالك قرباناً للآلهة ، ثم تدفن تحت هيكل تذكاري .

ولم تكن هذه الطقوس تتعلق في الأصل بحياة المؤمن المستقبل ؛ بل هدفت أول الأمر إلى منحه بعضاً من روح سيبيل وأتيس ، وقد اختص الأخير في العبادة السائدة بتنظيم الطبيعة . ولا يختلف هذا عما كان عليه أهل اليونان في عبادتهم للإله ديونيزيوس الذي افترضوا له طقوساً لاتقل غرابة اليوم في نظرنا ، وكانت تهدف إلى مشاركة الأتباع في روحه الخصبة عند دخولهم دينه .

ولكن ، مع بداية العصر المسيحي ، أثرت تيارات دينية وفكرية ، يصعب علينا تمييز معالمها وتحديددها ، على شعائر التضحية بالثور ، فطورتها في نهاية الأمر إلى وسيلة فعالة لكسب الخلود في الحياة الأخرى حياة السعادة . وموجز تفسير

(١) أو «التوروبول» عندما تكون الأضحية كبشا .

هذا المذهب : أن الحفرة تمثل مملكة الأموات ، وإذا ما نزل إليها المرید فكأنه مات . والثور هو أتيس ؛ أما دماؤه فتمثل جوهر حياته الإلهية ، ينزف منه ، فيثقله المرید وينشره ويمتزج به ، حتى إذا خرج من الحفرة عدُّ « مولوداً من جديد » فسقى اللبن كما يسقى الوليد^(١) . ولكنه لم يولد من جديد بشراً كما كان بل هو قد تشرب بذات الإله في جوهره ، وأصبح بدوره - حسب أدوار السر المقدس - إلهاً هو نفسه أتيس ، وتقدّم له الفروض على هذا الاعتبار . ثم عليه بعد ذلك أن يتحد مع الإله سبيل كما فعل أتيس ، زوجها ، في سيرته الإلهية ؛ والتقرب إليها بتقديم أعضاء الذكر من الثور يرمز إلى هذا الزواج الذى يتم روحياً في حجرة العرس الخاصة بـ « الأم الكبرى » ؛ كما أن قطع الثور يرمز إلى ما فعله أتيس ، إذ يروى أنه خصى نفسه تحت شجرة فئات من ذلك .

وبهذا يضمن المؤمن - لفترة طويلة^(٢) مشاركته في مصير أتيس ، بالموت الذى لا مناص منه ، ثم بالبعث في ديار السعادة والخلود مع الآلهة . وإن الكثير من ديانات هؤلاء الآلهة المنقذين للشفعاء - أمثال ميثرا ، وبعل السورى ، وسيبيل ، وغيرهم - كان يحدد الاتحاد المنجى المترتب على الشعائر والطقوس المذكورة ، أو يدعمه ويقويه ، بواسطة مآدب خاصة يتناول المؤمنون الطعام فيها جماعة على موائد الإله ، ولا نشك في أن هذه المآدب الدينية لم تكن

(١) نقرأ في بعض النصوص : « طقوس التورويول والكريويول مولد جديد في الخلود » . والنص إن أردنا الإنصاف من عصر متأخر (القرن الرابع الميلادى) إلا أنه يعبر تعبيراً واضحاً عن الهدف الأعظم من المراسم الخاصة بالتضحية .

(٢) يبدو أن التضحية بالثور كانت تجدد بعد مرور عشرين عاماً (هكذا على أى حال كان الأمر في السنين الأخيرة للإمبراطورية الرومانية) .

في كثير من الأحيان إلا تعبيراً عن التآخي بين المؤمنين ورمزاً بحتاً لذلك . غير أن أحد الباحثين في مثل تلك الأمور ، وهو كومون ، يقول لنا : « كان الناس في بعض الحالات يترقبون نتائج أخرى للمأدبة التي يشتركون فيها . كانوا يطعمون لحم دابة يعتبرونها إلهية ، ثم يظنون أنهم بذلك توحدوا مع الإله نفسه وشاركوه في جوهره وصفاته » . وإننا للأسف لانحلك إلا القليل من المعلومات التفصيلية عن هذه المآدب الدينية وعن طقوسها وألوان الأطعمة التي كانت تقدم فيها ، وإن كان مغزاها العام واضحاً كل الوضوح . وقد نقل إلينا جوستين ، وهو أحد المدافعين عن المسيحية في القرن الثاني الميلادي ، أن « أسرار » فيثرا احتوت على نوع من الشعائر يفرض تقديم كأس من الشراب وقطعة خبز إلى المؤمن ، مع النطق ببعض العبارات المعروفة آنذاك والتي لم يوضحها الكاتب .

وتنقل إلينا النصوص كذلك أن « أسرار » سييل وأتيس كانت تفرض على الاتباع المشاركة في مأدبة صوفية ، يصرح لهم بعدها بأن يعلنوا : « لقد أكلنا مما احتواه السنطور ، وشرنا مما كان في الصنج ، فأصبحنا من أتباع أتيس » . والسنطور آلة موسيقية اختصت بها سييل ، في حين اختص أتيس آلة أخرى هي الصنج . وهناك من الدلائل ما يرجح أن الأطعمة المقدسة التي كانت توضع في هاتين الآلتين هي الخبز ثم - على وجه الترجيح - لحوم الأسماك المقدسة والخمر . ولا يفوتنا هنا الإشارة إلى أن أتيس كان يمثل محبوب القمعج ، ولذلك نرجع الرأي القائل بأن مآدب القربان التي ذكرناها لا تعني فقط الجلوس إلى موائد الإله وتناول الأطعمة التي يفترض أنها لا تعني فقط الجلوس وإنما تذهب في رمزيتها إلى أبعد من ذلك : إنها تعني بالنسبة إلى المؤمنين « طعامهم الإله نفسه » وتشربهم بجوهره المنجي .

هل نحن بحاجة إلى إيضاح أوجه الشبه الساطعة بين هذه الطقوس والشعائر المختلفة - وإن كانت النظرة إليها عاجلة سطحية - وبين طقوس وشعائر التعميد والقربان عند المسيحيين؟ إن كبار رجال الكنيسة من القديس بولس إلى القديس أغوستين ، أى من القرن الأول إلى القرن الخامس الميلادى - لم يتجاهلوا هذا التشابه ، وهناك من الشواهد عدد وفير يدل على شدة اهتمامهم به . إلا أنهم فسروه حسب أهوائهم ، فقالوا : إن الشيطان أراد أن يتشبه بالمسيح ، وإن شعائر وطقوس الكنيسة كانت مثلاً أراد المشركون أن يحنذوه فى « أسرارهم » . وتلك نظرية لا يمكن الدفاع عنها فى عصرنا الحاضر . فمن المرجح أن المسيحية أثرت فى كثير من الأحوال على أديان المشركين التى كانت مثلها تهتم بتأمين النجاة فى الخلود لبني البشر بواسطة شفيع إلهي ؛ إلا أن الأساطير الجوهريّة والمراسم الدينيّة الأساسيّة والرموز والشعائر الفعالة ، كانت سابقة فى تلك الديانات على مولد المسيحية ، وكانت تجد العديد من التطبيقات فى العبادات المنتشرة بالعالم اليونانى إبان العهد الذى عاش فيه القديس بولس . ولندكر القارئ بأن الأمر لا يتعلق بطقوس وشعائر معينة فحسب ، أنه يذهب إلى مدى أبعد من ذلك . يذهب إلى نوع من التصوير للمصير الإنسانى ولخلاص البشر ، ثم يرمز إلى الإيمان والاطمئنان المرتبطين بـ « السيد الإلهى » الذى يشفع للإنسان عند الإله الأعظم ، بعد أن ارتضى هذا « السيد الإلهى » لنفسه أن يعيش وأن يتعذب كالإنسان ، حتى يصبح بنو البشر قريبين إليه للدرجة تسمح لهم بالاتحاد معه ، فىكون فى ذلك طريق نجاتهم حيث يرتبط مصيرهم ومستقبلهم بمصيره ومستقبل انتصاره . وتلك هى بالذات عقيدة القديس بولس فى رسالة ودور السيد المسيح ، ولم تكن بالعقيدة الغربية على التام ؛ بل هى لم

تميز كذلك بالعنصر الأخلاقي فيها ، وإن كانت قد بالغت في إظهار أهميته .
ونعني بالعنصر الأخلاقي : الاشتراط على المؤمن باتباع حياة لا تتصف بالتقوى
فحسب ، بل أيضاً بالطهر والكرم والرحمة . فالعبادات الأخرى عند المشركين
كانت تفرض أيضاً على أتباعها مثل ذلك من الأخلاق ، وإن لم تبلغ في التشدد
فيها ما بلغته المسيحية .

(٥)

ولكن هل أتاحت الظروف المواتية لبولس كي يتعرف على الأفكار الجوهريّة
والطقوس الأساسية لهذه « الأسرار » في العبادات السائدة ثم يتأثر بها ؟ ذلك هو
لسؤال الذى يتبادر إلى ذهننا الآن .

إن المعلومات التى وصلت إلينا عن الحياة الدينية فى موطنه ، طرسوس ،
خلال العصر الذى عاش فيه ، ليست بالمعلومات الوافية ولكن الآثار تدل دلالة
باطعة على أنه كان بها إلهان لها مكانة خاصة .

الأول يدعى « بعل طرز » ، أى « سيد طرسوس » ، وهو الذى قرن أهل
نيونان بينه وبين زيوس .

والثانى « ساندان » الذى قرنه أهل اليونان أيضاً بهرقل .
والإله الأول ، على أرجح الظنون ، كان إله زراعة قديماً ، يتحكم فى
تصوية الأرض . فلما انتقلت عبادته إلى المدينة وقرن شيئاً فشيئاً بزيوس ،
رتفعت مكانته ، واتخذ شكل وصفات إله السماء وسيد الآلهة ، وأصبح عرشه
بلو عن كل ما يمكن أن يبدله أتباعه من مساع لإدراكه ، أو هو يوشك أن
كون كذلك .

أما ساندان ، فقد بقى قريباً من المؤمنين به ، بل يكاد يكون ملموساً لهم وإننا لنخرج ببعض القضايا المؤكدة من خلال دراستنا للوثائق القليلة التي وصلت إلينا عنه ، ومن المناقشات والنظريات التي أثرت حولها .

كان ساندان هذا في الأصل إله خصوصية أيضاً ، أو - بصورة أعم - إله زراعة . وكان الناس يحتفلون به كل عام ، فيتظاهرون بإحراقه ، ويزعمون أنه يرتفع بعد ذلك إلى السماء . وكان ، إذن ، يمثل بين أهل طرسوس المعتقدات المتمثلة خلال هذا العصر في أتياس بين الفريحيين ، وفي تموز بين أهل بابل ، وفي أدونيس بالشام ، وأوزيريس بمصر ، وغيرهم من الآلهة المشابهين في بلا أخرى . بل نرجح أن عبادة ساندان كانت تبنى منذ ذلك الوقت بعض الأفكار من دين أو أكثر من هذه الأديان .

ولكن هل أخذت كذلك عن تلك الأديان مذاهب المعرفة الباطنية وطرق الوصول إلى النجاة الخاصة بها ؟ وهل يعدّ ساندان أيضاً « منقذاً » ؟ إنه لسؤال مزدوج لا يمكن الرد عليه حتى يؤمننا هذا رداً فاصلاً . فليس هناك من الوثائق ما يثبت في وضوح أنه كانت تقام له « أسرار » ، أو أنه كان يسمى بـ « المنقذ » . ولكننا نلاحظ أن آلهة الزراعة الآخرين الذين يموتون ويبعثون كانت لهم « الأسرار » وكان أتباعهم يرون فيهم وسطاء بين البشر والآلهة الأعظم ، ويعبدونهم شفعاء و « منقذين » . وهذا يدعونا إلى الاعتقاد بأن ساندان لم يختلف عنهم . وعلى أى حال لو لم يربولس من مظاهر عبادته سوء الطقوس السنوية للعجيد موته ، لكان ذلك وحده أمراً بالغ الأهمية .

ثم علينا أن نتساءل : هل كانت هناك عبادات أخرى ذات « أسرار » بطرسوس في بداية قيام المسيحية ؟ إننا نرجح ذلك ، بسبب موقع المدينة ع

مفترق طرق التجارة ، تلك الطرق التي كان الناس ينقلون بين أطرافها الأفكار والمعتقدات إلى جانب السلع والبضائع . ومع هذا يجب علينا الحذر فلا نقطع في المسألة دون تحفظ . وإن قرب طرسوس من بلاد الفريجيين وصلاتها بالشام ، ثم علاقاتها الدائمة بفينيقيا وروابطها مع مصر ، كل ذلك يكاد يفرض علينا القول بأن أهل طرسوس كانوا على علم بروح « الأسرار » المنتشرة في مختلف هذه البقاع ، وموضوعاتها الأسطورية الهامة وآمالها الأساسية ، ثم بأنهم أقاموا لأنفسهم بعضاً من شعائرها الأساسية في شيء قليل أو كثير من الاهتمام . والعالم القديم يعرض علينا تيارات متصلة من مثل هذه المبادلات في المجال الديني . وإن لنا للملاحظة أخرى تؤيد ما نذهب إليه في هذا المجال : تلك هي أن النزعة التأليفية التي تخلط أو تمزج أو تراوج بين الآلهة ذوى الصفات أو الوظائف المتشابهة ، تلك النزعة قد ظهرت في طرسوس بوضوح ومنذ زمن بعيد . ولعلنا نستطيع أن نعتبر هذه الظاهرة أبرز وأوثق ما وصل إلينا عن الحياة الدينية للمدينة . وإنا لنعلم إلى جانب ذلك أن العنصر الرئيسي في نمو « الأسرار » هو لتزعزعات التأليفية .

فن المرجح إذن إن لم يكن من الثابت تاريخياً ، أن بولس تدرج في نشأته لأولى بين أحضان بيئة مشبعة تماماً بفكرة « النجاة » هذه ، القائمة على شفاعته ووساطة إله يموت ثم يبعث ، ويشاركه أتباعه في مصيره ، إذ يتحدثون به - لا بالإيمان المطمئن القوى فحسب ، ولكن أيضاً بالطقوس الرمزية الفعالة . إننا لنكاد نميل هنا إلى القول بأن تلك الطقوس كانت تعدّ العنصر الأساسي في وصول الأتباع إلى مرادهم . ولم يكن من المفروض حتماً على المرء أن يدخل في بداد السالكين حتى يتعرف على هذه المفاهيم الدينية وعلى دلائل شعائرها ، أى

حتى يتحقق من وجودها وما تنطوى عليه من رموز ؛ فأهم ما كان يخفيه الأتباع ويكتمونه عن عامة الناس ليس مبادئ إيمانهم وآمالهم ، وإنما هو « السر الأعظم الرهيب الذى يعتقدون أنه يحول كيانهم ويطوره تطويراً .

وكذلك لم يكن من المحتم على المرء بطرسوس فى هذا الزمن أن يتخذ مكاناً فى حلقات الفلاسفة إن أراد تحصيل بعض مبادئ المذاهب التى يدرسونها ، فقامت طرسوس ، فى عهد الإمبراطور أغسطس ، مدينة تتحكم فيها جامعتها . ولهذا كان أهلها يعلقون أهمية كبرى على كل ما يصدر عن أساتذة هذه الجامعة ويبدو أن هؤلاء الأساتذة كان أغلبهم من الفلاسفة ، وأنهم كانوا يتمون إلى المدرسة الرواقية . وسائر الدلائل تشير إلى أن الكثير منهم كانوا قد سبقوا إلى اتباع نمط من التدريس الشعبى يبالغون بها تعريف الجماهير بفلسفتهم ودعوتهم إليها ، ويذيعون فيها أحكامهم الأخلاقية الأساسية وشيئاً كثيراً من مصطلحاتها الفنية . ويجب علينا ألا ننسى هذه الظروف عند قراءتنا لرسائل بولس التى نجد فيها آثاراً من الرواقية تكثرت فى الشكل وتظهر فى المبادئ أحياناً . وقد تصور بعض السابقين ، عندما لاحظوا هذه الآثار ، أن داعية المسيحية كان قد اتصل بالفيلسوف سينيكا ، وتبادل معه الرسائل الكثيرة . وأن هذا الاختراع الساذج لا يبرز موضوع الجدل فى إطاره الصحيح مثلما يبرزه الحديث عن خصائص وأهمية الحياة الفلسفية بطرسوس . لقد عاش بولس فى وسط أشيع بأفكار الرواقيين وبلاغتهم . وهذا ^(١) المثل الثانى لتأثير البيئة التى عاش فيها سنى طفولته وشبابه الأول على الأقل ، هذا المثل ينير جوانب المثل الأول ^(٢) ، ويتم توضيح

(١) أئلفسة الرواقية .

(٢) مفاهيم الأسرار

لسبل التي بواسطتها تلقى يهودى من يهود المهجر ، هو بولس - بطريقة تكاد تكون لاشعورية - مفاهيم « الأسرار » والفلسفة الرواقية ، فثبتت في أعماق فكره ، وكانت لها ثمار لم يتبينها هو نفسه إلا بعد ذلك بسنين كثيرة وهناك ، على أى حال ، تساؤل آخر ما زال ينتظر فصل القول ، وقد يكون في الإجابة عنه عنصر هام من المعلومات اللازمة للتعرف على ذلك التطور لغامض في سيرة بولس الدينية : هل كان كل يهود طرسوس من المتمسكين الشريعة اليهودية والمتشددين فيها ؟ أو كانوا على العكس من ذلك يفتحون بواب معابدهم في صورة ما لمؤثرات البيئة التي يعيشون فيها ؟ ثم : ألم توجد من بينهم طائفة استسلمت لتيارات التفاعل بين الأديان الذي تحدثنا عنه سابقاً الذى دعا في بعض الأحيان ، على ما يبدو ، إلى تطوير الأمل القومى في الانتصار وهو حلول مملكة الله نحو مذهب « النجاة » ، ولو ثبت هذا ، ونحن نيل إلى ترجيحه وإن كنا نجعل حقيقة الأمر - لما دعينا قط إلى افتراض أن يس قد اتصل بهؤلاء اليهود المنحرفين ، بل قد يمكننا القول ، إن أردنا ، بأنه ان يكرهم كل الكراهية ، وذلك اعتماداً على ما تشير إليه « أعمال الرسل » من مدده وتشدد عائلته في دين أجدادهم . إلا أنه لم يكن ليتجاهلهم ، بل هو قد متقى منهم الرأى في « النجاة » وفي « المنقذ » . ولو تأكد لدينا بصفة قاطعة أنه ثر بهم في شبابه ، لقلنا : إن ذلك كان العنصر الأساسى ، أو - إذا شاء قارئ - البذرة الأولى ، في تطور عقيدته .

ومهما يكن فصل الخطاب في هذه المسألة الأخيرة ، فإننا - على أى حال - نتطيع تأكيد حقيقة لا يمكن الجدل فيها ، تلك هى أن طرسوس لم تصبح حض المصادفة مهداً لـ « الحوارى المرسل إلى المشركين » ، أى للرجل الذى

ساهم بأكبر قسط في نشر دين جديد للنجاة باسم المسيح عيسى ، وإنما كانت كذلك نتيجة لعوامل متعددة .

ومن ناحية أخرى ، فإننا حين ننظر إلى ملكات بولس العامة في التبشير ، حسب أساليب يونانية - رومانية ، بعقيدة يهودية الأصل ، نجد أنه كان في وضع يلائم تحقيق عمله كل الملاءمة ، فقد جمع بين مميزات ثلاث جعلت منه أقدر الناس على القيام بهذا الدور : كان يونانيًا ، وكان يهوديًا ، ثم كان أيضاً رومانيًا .

وعندما نقول إنه كان يونانيًا ، فإنما نقصد بذلك أنه أشرب في بيئة طرسوس شيئاً من الروح الإغريقية بطريقة تكاد تكون لاشعورية ، وأنه لقن اللغة اليونانية ، ففتح بذلك أقوى أداة للفكر والعمل ، وأيسر الوسائل في عصره للتعبير عن الرأي والدفاع عنه . وعلينا ألا نبالغ في الأمر بطبيعة الحال : فلم يكن بولس بالأديب اليوناني ، ولم يتخرج على أيدي أساتذة المدارس الكبرى في مدينته ، كما لم يقم بدراسة مستفيضة لـ « الأسرار » . غير أنه عاش في وسط يتحدث باليونانية ويستخدم كلمات مثل : « الله » ، « عقل » ، « منقذ » ، « منطق » ، « روح » ، « ضمير » ، فلم تكن بالكلمات الغريبة عليه بعد ذلك ، ويمارس نوعاً من فن البلاغة استطاع به أن يطوع أساليبه القوية الملفتة . وكان هذا الوسط يهتم بفلسفة معينة بقيت بعض أحكامها والكثير من مصطلحاتها الفنية في ذهن داعية المسيحية . وكان كذلك وسطاً يتعلق عامة بأنماط من الأمل في حياة أخرى تعقب الموت ، ويسعى إلى تحقيقها بل يؤمن أنه يحققها ، بوسائل مختلفة ، ولم يكن بولس ليجهل هذه الآمال ، ولا ليعمى عن المظاهر الأساسية للوسائل المستخدمة من أجل تحقيقها . وقد قيل إن الروح اليونانية ليست بالعنصر

لأول في شخصية بولس وإن كان يهودياً قبل أن يكون يونانياً ، والقائلون بذلك على سواب ولاشك في دعواهم هذه . إلا أنه كان - وهذا أمر يجب أن نذكره دائماً يهودياً من مدينة طرسوس » . ويبدو من المؤكد اليوم أنه إن لم يكن قد ارتقى لى أرفع مراتب الثقافة اليونانية - وكانت بمتناوله في رحاب مدارس وطنه - فقد تدرج في الثقافة اليهودية لهذا العصر حتى بلغ منها منهاها . وكانت هذه لثقافة تنحصر في الدراسة المتبحرة للنصوص المقدسة . وسبق أن ذكرنا في هذا لصدد سطوراً من مجموعة « أعمال الرسل » (٢٢ / ٣) تقول على لسان ولس ، إنه ربي على أعتاب جاليل ، أى : بالقدس في مدرسة حفيد العالم لكبير حليل . ونكرر هنا أننا لانتق كثيراً في هذا الادعاء ، بل نعتقد أنه يبعد بنا من الحقيقة . ومع ذلك فن المسائل التي لا تقبل الجدل أن رسائل بولس تشهد معرفة للنصوص المقدسة مماثلة لما اعتدنا عليه من معرفة علماء اليهود بها ، يتضح من خلال هذه الرسائل روح مؤلف أخذ الكثير من الفريسيين في كوينه الفكرى : فهو يعشق الجدل ويمتاز بالبصيرة النافذة المدققة وبالدهاء لشديد في تقديم البراهين أو هدمها ، كما نراه يهاجم الشريعة اليهودية بنفس لأساليب التي استخدمها من قبل في الدفاع عنها . ويتضح في رسائله أيضاً أنه معتمد على رصيد من المذاهب - حول طبيعة الإنسان وفكرة الإثم والعلاقة بين إثم والموت - لا تقل في اتصاها بروح علماء اليهود ، عن مناهج الجدل التي طرقها .

ومن الظواهر ذات الدلالة العميقة أنه كان ، فيما يبدو ، يعتمد اعتماداً دائماً على الترجمة اليونانية للتوراة ، المسماة بـ « السبعينية » . وغالب الظن أنه كان تراً أيضاً الأصل العبرى ، ولكننا لانجزم بذلك . وعلى أى حال فهو لا يكاد شير في كتاباته إلى نص لها غير ذلك النص الإسكندرى الذى أشرب به

فكره^(١) . وتلك الملاحظة على الأخص تدعونا إلى الاعتقاد بأنه لم يدرس النصوص المقدسة في مدينة القدس ، ولكن في إحدى المدارس اليهودية بالمهجر ، وإننا لنشير هنا إلى انطاكيا وهي غير بعيدة من طرسوس . وكانت المركز الفكرى الأكبر لآسيا اليونانية وميدان التلاقى أو التجمع للمذاهب والمعتقدات المتشابهة أو المختلفة .

ولم يكن غير اليهودى في هذا العصر يهتم بدعوة عيسى . ولم يكن غير اليونانى يستطيع أن يمد في أبعاد هذه الدعوة حتى يبلغ بها حدود العالمية وأن يثبت فيها بذور الخصوبة . ونعنى بطبيعة الحال : ذلك اليونانى الذى لا يحد أفق فكره تعصب لثقافة مدرسية معينة ، والذى يأخذ من العالم الإغريق نزعاته الدينية وصبوات إيمانه ، فيشارك فيها أكثر مما يشارك في الاتجاهات الفكرية به . وقد جمع بولس بين اليهودية واليونانية ، ثم أضاف إليها ميزة ثالثة غالبة هي تمتعه بالجنسية الرومانية ، أو بتعبير أدق : حصوله على صفة « المواطن الرومانى » . وكانت تلك الميزة ذات نفع كبير متعدد الجوانب : كانت تحميه من الانزلاق إلى تعصب يهود فلسطين القومى الذى اتصف بضيق الأفق وكرهية الأجنبى ، وكانت تدعوه إلى العالمية في التفكير والعمل ، ثم كانت هي السبب الذى اتخذته - وهو لا يكاد يشعر - ليرتفع بالأمل - الذى ظهر بين طائفة محدودة من اليهود - إلى مرتبة الأديان الإنسانية .

لذلك كله نستطيع وصف بولس بأنه كان « منشئ المستقبل » .

(١) كان يهود المهجر يعتبرون أن النص « السبعين » منزل ، تماماً كالنص العبرى ، وتلك نظرية فرضها عليهم حرصهم الدينى ، وتعتمد على ما يروى من التشابه التام بين اثنين وسبعين ترجمة للنص قايها اثنا وسبعون مترجماً . ومن الواضح أن مثل هذا التوافق لم يكن ليتِم إلا بفيض من الله !